فكرة التاريخ لروبين جورج كولنجوود

بقلم
الأستاذ أحمد حمدى محمود
ماجستير فى الفلسفة من جامعة الاسكندرية

تدور فلسفة كولنجوود حول إحداث تقارب بين الفلسفة والتاريخ . والقصد من ذلك هو أن يدرك الفلاسفة أن الكثير من المشكلات الفلسفية التى تواجه الفيلسوف فى حاجة إلى الفهم التاريخى ، كما أن أكثر هذه المشكلات تاريخية فى صميمها . ولا يحق بأى حال القول أن كولنجوود هو أول من نادى بهذا الرأى الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر عندما بزغت النزعة التاريخية التى نبهت الأذهان إلى قيمة التاريخ والزمن اللذين تجاهلهما الفكر الإنسانى من أيام اليونانيين . وكان لهذه النزعة أثرها الطيب على كل من الدراسات الإنسانية والطبيعية على حد سواء ، كما أنها دفعت الفلاسفة إلى ضرورة العناية بمنهج الأبحاث التاريخية باعتبار التاريخ علماً لا يقل من ناحية الحقيقة عن باقى العلوم والباحث المدقق فى فلسفة ابن خلدون يستطيع أن يصادف عدة فقرات تبين أنه كان على علم بالقيمة الفلسفية للتاريخ وضرورة اعتماد المعرفة بأسرها على الفهم التاريخى. ولكن كولنجوود من ناحية يعتبر أول من وضع مذهباً من هذا النوع فى الفلسفة البريطانية فاختلف لذلك عن الفلسفة التقليدية البريطانية التى لا ترى ضرورة لعناية الفلاسفة بالتاريخ لأن التاريخ للمؤرخين . يضاف إلى هذا عدم ترحيب هذه الفلسفة بأى تغيير فلسفى سواء فى موضوعات البحث أو المنهج ، ومن ثم اقتصرت على موضوعات محددة لا تتعدى المعرفة الحسية والمسائل الأخلاقية والسياسية بعكس الفلسفات الأوروبية التى لم تعرف مثل هذه الحدود ، بل خاضت غمار المشكلات كافة ، واستطاعت أن تحلق بعيداً وأن تكتشف آفاقاً فلسفية واسعة . ولعل اختلاف كولنجوود عن فلسفة مواطنيه هو السبب فى عدم ترحيب الفلاسفة البريطانيين بفلسفته ونفورهم منها فى بعض الأحيان وتسميته بالمثالى ، والمثالية إهانة ضخمة ببريطانيا لأنها تعنى الخضوع لفلسفات أجنبية مستوردة وعدم الولاء للفلسفات القومية .

وصلة كولنجوود بالتاريخ قد بدأت منذ بل منذ أن كان صبياً ، كما ذكرنا فى ترجمته فقد كان لأبيه الذى يعمل بالتنقيب عن الآثار أدرك أنه لن يبرع فى التصوير فضل تعريفه بد التاريخ القديم والحديث ، كما أن كولنجوود قد استطاع أن يقرأ بمفرده فى مكتبة أبيه التى كانت تحتوى على أكثر المراجع التى تدرس فى جامعة أكسفورد عدة كتب تاريخية . وفى هذه المكتبة صادف وهو فى التاسعة

كتاباً عن « ديكارت » يدعى Pricipia ، وفيه عرف أن للعلوم الطبيعية تاريخاً ، وأن الوعى بهذه العلوم يقتضى معرفتها تاريخيا ، واشترك كولنجوود فى التنقيب عن الآثار منذ صباه أثناء عطلاته الدراسية ، وربما كانت صلة كولنجوود بالآثار أقدم صلاته العلمية كلها فهو يروى فى ترجمته الذاتية أنه كان يُحمل وهو رضيع إلى مواقع التنقيب الأثرى .

ونحن لا نصادف فى حياة كولنجوود أحداثاً غير مألوفة أو شائقة ، لأن حياته التى أمضاها فى البحث والدراسة والتأمل كانت خالية تماماً من المغامرات والمخاطرات التى تبعث التشويق فى كتب السير . والظاهر أن حياة الفلاسفة هذه الأيام لم تعد شائقة كما كانت فى الماضى ، فلم يعد لهم دور فى توجيه الملوك ، كما كان الحال أيام أرسطو أو فولتير ، كما أنهم لا يشتركون فى المؤامرات والدسائس مثل فلاسفة عصر النهضة ، ولكنهم يجاهدون بعيداً عن الناس فى مجالات التعليم والدراسة والبحث حيث لا يعرفهم سوى النزر اليسير من زملائهم وقرائهم . فلا عجب لذلك إذا اقتصرت سيرة كولنجوود على أخبار دراسته فى المدرسة الابتدائية والإعدادية وتفوقه أثناء هذه الدراسة على أقرانه حتى قال معلموه إن الفارق عظيم بين قدرته الذهنية والمقررات الدراسية فقد تسنى له أن يقرأ فى صباه عدة كتب فى العلوم الطبيعية وخاصة الجيولوجيا والفلك والطبيعة وأن يتعلم اللغتين الفرنسية والألمانية ، وأن يقرأ وحده دون توجيه من أساتذته فى تاريخ إيطاليا فى العصور الوسطى وتاريخ شعراء فرنسا ، وأن يفهم دانتى وغيره من الشعراء ، وأن يعزف الكمان ويلم بأهم المؤلفات الموسيقية خاصة ما اتصل منها بآلة (البيانو) التى كانت والدته تتقن العزف عليها ، ولم ينس فى هذه الفترة المشاركة فى النشاط الرياضى لمدرسته والبراعة فيه .

ومع كل هذا فهو لا يذكر فترة دراسته الأولى بمدرسة راجبي Rugby بالخير والرضا ، ولذا فإنه شعر عند التحاقه بجامعة أكسفورد كأنه قد أطلق سراحه بعد سجن طويل ، لأنه استطاع فى فترة دراسته الجامعية أن يتحرر من القيود الدراسية وأن يقرأ ليلا ونهاراً ، وأن يتخلص من جميع الفروض الاجتماعية وواجباتها لأن أصدقاءه كانوا قلائل ، ولذا فإنه كان يفضل النزهة فى أوقات فراغه فى الحقول قرب النهر . والإنصات للموسيقى أو عزفها .

وبعد إنتهاء دراسته عين مشرفاً فى كلية « بنبروك » Peanbroke وقسم وقته بين الأبحاث التاريخية والفلسفية ، ولكن كان للفلسفة عنده على الدوام المقام الأول . وفى أثناء الحرب العظمى الأولى عين بمخابرات البحرية البريطانية ، وأبدى هناك براعة فى الاستنتاج ، وكتب بحثاً قانونياً خاصاً بالملاحة فى « Scheldt & Antwerb" ، وتزوج بعد الحرب بآنسة تدعى « إتيل جراهام » وتخلى عن وظيفته فى « بنبروك » وفقاً لتقاليد الكلية التى تحتم عدم زواج أعضاء هيئة التدريس الذين لم يمضوا سبع سنوات ، ثم عين مرة ثانية باعتباره متزوجاً قبل مضى سبع السنوات الحرام .. واستأنف نشاطه الجامعى فى الفلسفة والآثار ، وأقام بمنزل يبعد ثلاثة عشر ميلا عن أكسفورد ، واتبع نظاماً معيناً لم يغيره وهو النوم أربع ليال بالكلية وقضاء باقى أيام الأسبوع بما فى ذلك عطلة نهايته فى منزله . واقتصر نشاطه على الدراسة والكتابة ، ولم يقم إلا بالأعمال الإدارية الضرورية ، كالامتحانات وتصحيحها ، وكانت له آراء ذات قيمة فى التعليم الجامعى ولكنه لم يشترك فى وضع سياسة الجامعة ، ولم يكن طموحاً للوصول إلى أى وظيفة ، كما أنه لم يحرص قط على حضور اجتماعات مجالس الكلية أو لجانها المختلفة .

وعرف عنه الحرص على زيارة متحف «اشميلين» Ashmeleen وكثرة الاهتمام بقراءة المخطوطات

الفلسفية والأثرية والقدرة على قراءتها بسرعة فائقة ، وكان يقرأ اللغات الألمانية والفرنسية والإيطالية والإسبانية كما أنه كان كثير الاطلاع فى المواد الغير المرتبطة بمناهج الدراسة فكان يقرأ عن قيادة اليخوت والقصص الخرافية . واشتهر بالدقة عند النشر ولم يكن يُغير مسودات مؤلفاته ، كما أنه لم يضف أى هوامش لأنه اعتبرها من علامات عدم هضم مادة البحث . أما محاضراته فكانت نماذج طيبة للذين لا يميلون إلى المحاضرات المنهجية أو البلاغية ، فكل محاضرة كاملة بذاتها ، يُكثر من ذكر كلمة « بالتأكيد » ويتظاهر بالتراجع أمام محدثه ثم يُبين له مواطن الضعف وشدة تعارض القضايا التى قام بعرضها ، وغالباً كان محدثوه يشعرون بالهزيمة ، ولكنهم كانوا لا يقتنعون ، وامتاز بلطف الأسلوب ، والمقدرة على الاستماع المهذب الرقيق كما امتازت أحاديثه بالسهولة والوضوح والأناقة وسلامة المنطق ، وذلك لإلمامه الطيب باللغة الإنجليزية وآدابها وقدرته على التحدث فى أكثر من موضوع لاتساع معرفته وعمقها ، وربما اعتبر أفضل من درس فى أكسفورد علما ومعرفة .

ومن صفاته الإسراف فى الثقة بنفسه لذلك لم يكن من السهل مفاجأته فى أى مناقشة . ولم يكن ميالا للمعارضة ذاتها كما أنه لا يرفض أبداً أى رأى حتى إذا قدم له بوقاحة ، بل يعالج الموضوعات على الطريقة السقراطية ، بتوجيه أسئلة تزعج محدثيه . وفى سنة ١٩٣٤ خلا كرسى الفلسفة الميتافيزيقية بجامعة أكسفورد. فشغله كولنجوود . وفى نفس السنة أصبح عضوا فى الأكاديمية البريطانية . وفى سنة ١٩٣٨ حصل على دكتوراه شرفية فى القانون ، ولسوء الحظ ساءت صحته بعد ذلك ، وأصابه أرق مزمن ، وأفادته الرحلات البحرية إلى جزر الهند الشرقية من الناحية الصحية . وفى إحدى المناسبات نجا من الغرق أثناء قيادته لليخت عابراً القنال الإنجليزى بمفرده ، ولم يعرف الاسترخاء والكسل أبداً ، فقد حرص على الاطلاع والكتابة ولاحظ المقربون إليه أن بنيته وعقله قد تأثرا من هذا الإفراط . ومن الغريب أن تكون فترات المرض هى أخصب فترات حياته فقد كتب فيها أفضل كتبه واستقال من الأستاذية سنة ١٩٤١ ، واعتكف فى « كونستون » فى منزله الذى ورثه عن أبيه ، ومات ودفن سنة ١٩٤٣ عن أربعة وخمسين عاماً . ويمتاز كولنجوود بالشجاعة الأدبية ووضوح الفكر وبراعة العرض ، والتمكن التام فى سائر الموضوعات التى درسها فى الفن والأدب والعلم .

هذا موجز لسيرة كولنجوود كما رواها فى ترجمته الذاتية ، وكما ذكرت عند تأبينه بعد وفاته فى مجلة الأكاديمية البريطانية . ولكن لا أظن أن مثل هذه الوقائع ذات قيمة فى ذاتها . إن القيمة الحقيقية للفيلسوف هى أفكاره التى ربما لا تؤثر فى البيئة الفلسفية التى ظهرت فيها ، ولكنها تنير الطريق أمام الأجيال القادمة ، وتوضح لها مشكلاتها التى تصادفها . ولم يضن كولنجوود بفضل عمق دراساته وتعددها علينا ، أو على الأجيال الآتية بمعنى أصح فى هذا السبيل . فقد ألف فى المنهج الفلسفى ، والميتافيزيقا وفلسفات الدين والتاريخ والطبيعة والفن والسياسة ، بالإضافة إلى مؤلفاته فى التاريخ والآثار ومحاضرات ومقالات متعددة ، وهى تدل كلها على الخلق الفلسفى الصحيح الذى لا يتوقف عن البحث والاستقصاء أبداً ولا يرضى أو يقنع بأى أفكار مستخلصة من أفكار الغير ، بل يراجع ويعدل ، ولا يهمه إذا ذكر النقاد أنه قد تناقض مع نفسه لأن الاهتداء إلى الحقيقة أهم بكثير عنده من أقوال النقاد .

ووفقاً لمعيار كولنجوود الفلسفى قد يعد كتاب « مقال فى المنهج الفلسفى » Essay on

Philosophical Method الذى كتبه سـنة ١٩٣٢ أفضل كتبه ، فهو يمتاز بالدقة وحسن تنظيم المـادة الفلسفية وهضمها ، كما يدل على صفاء ذهن الفيلسوف ، وقدرته على ضبط نفسـه . لهذا يعده بعض المفكرين البريطانيين كتاباً كلاسيكياً لاختلافه عن باقى كتب كولنجوود التى ربما لا تخلو من التأثيرات العاطفية والنقائض . ولكننى فى الحقيقة لا أعتبر هذا الكتاب أفضل مدخل لفلسفة كولنجوود بالرغم من أنه كان المفروض أن يفى بهذا الغرض كما يفهم من عنوانه . فهو لا يعرفنا محور فلسفة كولنجوود الذى ذكرناه ، أى التوفيق بين الفلسفة والتاريخ ، فلذا قد يكون كتاب « فكرة التاريخ » The Idea of History الذى رأيت عرضه فى هذا المقال أكثر ملاءمة لغايتى.

وكتاب فكرة التاريخ قد نشر لأول مرة بعد وفاة المؤلف بثلاث سنوات، وقام بنشره وترتيبه ومراجعته « نوكس » T. M. Knox . وكان كولنجوود ينوى إصدار كتاب سنة ١٩٣٦ يتضمن اثنتى عشرة محاضرة تحت عنوان فلسفة التاريخ ، ويقع فى جزأين : الجزء الأول فيه عرض يبين كيف تقدمت فكرة التاريخ من أيام « هيرودوت » إلى القرن العشرين . أما الجزء الثانى ففيه تعقيب ميتافزيقى أو تأملات فلسفية عن طبيعة التاريخ وموضوعه ومنهجه . وانتهز كولنجوود فرصة استشفائه فى جزيرة جاوه ١٩٣٩ ، وأتم الجزء الثانى تحت عنوان «مبادىء التاريخ» The Principles of History وفى هذا الجزء قام كولنجوود بمناقشة الخصائص الرئيسية للتاريخ ، وصلة التاريخ بباقى العلوم وخاصة العلوم الطبيعية والفلسفية ، وقيمته فى الحياة العملية . وفى سنة ١٩٤٠ راجع المسودة التى كتبها ١٩٣٦ ، وبصفة خاصة الجزء المتعلق باليونان والرومان ، وأعاد تسميتها « فكرة التـاريخ » The Idea of History أسوة بكتـابه الآخر The Idea of Nature ولكن سوء حالته الصحية وتوقعه الموت قد حالا دون إتمام ذلك . ولذا اهتم بكتابة وصيته الفلسفيـة التى أسماها An Auto-biography ، « ترجمة ذاتية » ، وضمنها ردوداً على ناقديه وتوضيحات هامة لجميع آرائه الفلسفية ، وبصفة خاصة فلسفة التاريخ التى كان نصيبها ما يقرب من ثلثى الكتاب . وقد اعتمد « نوكس » على هذه المحاضرات ، وأضاف إليها مقالات سبق نشرها فى مجلات فلسفية ومحاضرات أخرى . وليس من شك فى أنه قد أصاب عندما اكتفى بكتاب واحد عند النشر بدلا من كتابين ، وفقاً لنية كولنجوود الأولى ، فلا يمكن فى الواقع الفصل بين ما كتبه كولنجوود عن تاريخ الكتابة التاريخية ومذهبه فى التاريخ ، فلم يكتب كولنجوود هذا التاريخ إلا ليمهد لنظريته . وفى كل سطر من سطوره نستطيع أن نلمح ملامح هذه النظرية. ويعد هذا العرض وافياً إلى حد بعيد ، وإن كنـا لا نستطيع أن نبرر على الإطلاق إغفال ذكر التاريخ وفلسفته عند العرب ، وبصفة خاصة ابن خلدون الذى تهتم به عادة جميع المؤلفات الخاصة بفلسفة التاريخ .

والكتاب يبدأ بالكلام عن الصور التاريخية التى يسميها كولنجورد بالصور الشبيهـة بالتـاريخ quasi history ، وهى الصورة الثيوقراطية والأسطورية التى لا تعتمد على بحث المصادر ومناقشتها لأن التاريخ فى هذه الصور قد كتب فى صورة وقائع معروفة غير قابلة للمناقشة ، والقارئ مطالب بقبولها على علاتها بوصفها آتية من مصدر علوى لايناقش ، أما التاريخ العلمى فقد بدأه اليونانيون أيام هيردوت ، ولذا فإن تسميته بأبى التاريخ حقيقية تماماً ، فقد كان منهجه التاريخى مماثلا لمنهج سقراط فى الفلسفة ، أى يعتمد على مناقشة الأدلة التاريخية ، وبدء البحث بتوجيه أسئلة إلى المصادر . والبحث التاريخى عند اليونانيين كان يدور حول الإنسان ، وغايته هى تعريف الإنسان ، ما هو الإنسان ؟ ومن ثم يبدو

أن نقطة التحول الأولى فى الكتابة التاريخية قد تمت على أيديهم . وتمتاز كتابتهم التاريخية باعتمادها على مدى زمنى قصير ، فالمؤرخون لا يذكرون إلا الأحداث المعاصرة لهم ، أو التى تستطيع ذاكرتهم أن تعيها ، ومعنى هذا أن المؤرخ كاتب سيرة عصره . ولم يسمح المنهج اليونانى بتجميع الكتابات التاريخية المتفرقة فى تأليف واحد ، وتدور الأحداث التاريخية حول أفعــال الإنسان وغاياته ونجاحه وإخفاقه ، ولا تظهر الإرادة الإلهية من خلال هذه الأفعــال إلا نادراً ، إذ ليس للآلهة خطة ، تعترض الأحداث التاريخية والأفعال الإنسانية . وأهم نقص فى كتابتهم هو جهل المؤرخين بسيكلوجية الناس وأخلاقهم ، وذلك لأنهم ظنوا الإنسان حيواناً عاقلا قادراً على الفهم والإدراك ، وله دور هام فى الحياة السياسية ، ومن ثم فهو قادر على فهم الحيــاة فهماً حكيماً . ويضاف إلى هــذا النقص نقص آخر هو إيمانهم « بالجوهرية » ، أى ظنهم أن الشخصيات التاريخية ذات جوهر أبدى خارج التاريخ ، وأن الأفعــال التاريخية عرضية لا تُضيف أو تُنقص من الشخصية التاريخية . وهــذه النظرة معارضة تماماً للنظرة التاريخية .

ثم مرت الكتابة التاريخية فى نقطة تحول ثانية عند ما تأثرت بالمسيحية التى جعلت التاريخ يعبر عن أهداف الله بدلا من الإنسان ، وتصورت الشخصيات الإنسانية أدوات تحاول تحقيق أهداف الله ولذا فإن وجودها عابر وليس أبدياً . وللمسيحية فضل توجيه أنظار المؤرخين إلى عالمية التاريخ وقصور التاريخ الجزئى واتباع تقويم واحد لجميع الأحداث وهــذا التقويم قد قسم التاريخ إلى قسمين : نور أعقب ظهور المسيح ، وظلام سبق ظهوره .

وتعد نقطة التحول الثالثة رد فعل للنزعة الطبيعية التى ظهرت فى آثار عصر النهضة ، والتى يعتبر «ديكارت» أفضل من عبر عنها عندما كتب منهجه للفلسفة بأقسامها الثلاثة : الرياضة والطبيعة والميتافزيقا ، ورأى أن التاريخ لا يستطيع ادعاء الحقيقة بالرغم من قيمته التعليمية والترفيهيــة وفوائده العملية وقد ثار على هذه النظرة « فيكو » فى إيطاليا ، الذى هاجم معيار الحقيقة الديكارتى القائم على الفكرة الواضحة المتمايزة ، والذى اهتدى إلى نتائج هامة فى البحث التاريخى نتيجة لدراسة القانون واللغة وأثبت « فيكو » أن العلوم الإنسانية توصل إلى معرفة أكيدة كالتى ادعاها « ديكارت » لنتائج الأبحاث الطبيعية والرياضية ، كما بين أن المؤرخ يستطيع إعادة بناء هذه الموضوعات فى عقله بالإضافة إلى قدرته على بيان كيف ظهرت إلى الوجود فى الماضى . ومن ناحية أخرى عارضت التجريبية الإنجليزية الممثلة فى « لوك » و « هيوم » هذه النظرة الديكارتية ، ووجهت الفلسفة تجاه التاريخ دون وعى بمشكلات التفكير التاريخى عندما أنكرت الأفكار الفطرية التى نادى بها « ديكارت » ، التى تعتبر معارضة لفكرة التاريخ . فلو كانت المعرفة قائمة على المجاهرة بالمبادئ الفطرية المضمرة ، أو كانت هذه الأفكار الفطرية موجودة بوصفها أشياء بالقوة فى العقل الإنسانى ، لكان من الممــكن لكل إنسان أن يحصل على المعرفة وحده ، ولما كان هناك مايدعو إلى اشتراك الجميع فى صنع المعرفة ، وبنائها كما يحدث فى التاريخ . أما القول بأن المعرفة مبنية على التجربة فيعنى أنها من إنتاج التاريخ ، لأن الحقيقة كما قال « بيكون » هى بنت الزمن ويعد « هيوم » أكثر هؤلاء الفلاســفة البريطانيين التجريبيين معرفة بالمسائل التاريخية التى مارسها ممارسة فعلية ، واعترف بأن المعرفة التاريخية مشروعة ، وربما كانت أكثر شرعية من باقى العلوم لأنها لا تعد أكثر مما تنجز ، ولأنها لا تعتمد على أى فروض ميتافزيقية تدعو إلى البحث ، كما أن فلسفته لم تكتف بإنكار الجوهر المادى وحده ، بل

أنكرت كذلك الجوهر الروحي ... وكما رأينا أن هذا الإنكار للجوهرية يتفق تماماً مع التفكير التاريخي.

هذه هي نقط التحول الثلاث التي سبقت المرحلة التي أسماها كولنجوود بمرحلة « التاريخ العلمي » ويصادفنا في هذه المرحلة اتجاهان متقابلان، كل منهما يدعى كتابة التاريخ بالطريقة العلمية . أما الاتجاه الأول فهو الاتجاه الوضعي الطبيعي الذي ينتمي إلى فلسفة عصر التنور والذي يعتبر كلمة علم مرادفة لكلمة طبيعة حيث لا اختلاف بين الوقائع التاريخية والطبيعية ، لأن البحث في الاثنين يبدأ باكتشاف الوقائع ، ثم تقرير الصلات بينها ، ويعد البحث التاريخي منتهيا عند الاهتداء إلى قوانين تعيننا على التنبوء ، وكأن التاريخ علم أرصاد إنسانية على حد قول كولنجوود . وقد تمخضت الأبحاث التي قام بها هؤلاء الوضعيون عن نتائج بعيدة تماماً عن التاريخ ، وربما اهتدى أنصار هذه الطريقة إلى نتائج مفيدة من الناحية العملية يمكن تسميتها علم اجتماع أو اقتصاد أو علم نفس أو انثولوجي الخ .. ولكن لا يصح بأي حال أن تسمى تاريخا ، وليس من شك أن أنصار الاتجاه الآخر الذين نادوا بأن التاريخ علم قائم بذاته Sui generis مستقل لا يتبع منهج العلوم الطبيعية كانوا محقين في نقدهم لهذه النزعة الطبيعية ففي رأيهم أنه لا توجد صورة واحدة للمعرفة العلمية ، وأن كلمة علم لا ترادف كلمة طبيعة ، فليس ضرورياً أبداً أن يكون دور العلم هو جمع الأشياء المعروفة في أنماط معينة كما هو الحال في الطبيعة ، بل إن العلم في الواقع يبدأ بعرض مشكلة لا تعرف إجابتها ، ويعقب ذلك بحث عن الإجابة

هذا الاتجاه العلمي الآخر قد بدأ بظهور الرومانتكية التي وسعت الأفق التاريخي عند ما اهتمت بالبحث في عصور أسماها عصر التنور بالعصور الهمجية وأهملها لهذا السبب. ويضاف إلى هذا مهاجمتها النظرية القائلة بثبات الطبيعة الإنسانية وعدم تغيرها . . وأهم فكرة أفادت الأبحاث التاريخية في هذا العصر هي التفرقة بين الطبيعة والتاريخ ، التي ترجع إلى تفرقة كانط بين الظواهر والشيء في ذاته . وقد عبر «لوتسي» Latze عن هذه الفكرة بقوله « إن الطبيعه هي عالم الضرورة أما التاريخ فهو عالم الحرية .. وإلى «فيختته» Fichte ، وشلنج Schelling ، وهيجل Hegal يرجع تأكيد دور الذات والمشخص في المعرفة التاريخية وإن كان إسرافهم في التفرقة بين العناصر القبلية apriori والمادة التاريخية قد دعا إلى الظن بأنه من المستطاع إعادة تكوين التاريخ على أسس قبلية دون اعتماد على الدليل التجريبي للوثائق . وبفضل نظرتهم المثالية وتفرقتهم بين ظاهر الوقائع وباطنها أمكنهم تمثل التاريخ وتصوره شيئاً معقولا ترتبط فيه الأحداث باطنياً بروابط منطقية ، كما أنهم قد أفادوا البحث التاريخي فائدة طائلة عند ما جعلوا التاريخ ينتهي في الحاضر بدلا من المستقبل ، لأن المستقبل ليس بموضوع معرفة ، بل هو موضوع أمان ومخاوف والأماني والمخاوف ليست تاريخاً . كل هذه الأفكار الرومانتكية قد كانت نواة لأبحاث المدرسة الكانطية الجديدة في ألمانيا والمدرسة المثالية في إيطاليا . وقد حاولت هاتان المدرستان تأكيد استقلال التاريخ علماً قائماً بذاته ، وإن كان كولنجوود يلاحظ أن التوفيق لم يكن حليف أتباع هذه المدرسة على الدوام ، وأغلب الظن أن السبب هو تأثير النزعة الطبيعية الجارفة ، فلذا أخطأ المفكرون عدة أخطاء نتيجة لتأثرهم بالطبيعيين . فمثلا عند الألمانيين أخطأ فندلبند Windelband عند استبدال كلمة علم الحضارة Kulturwissenschaft بكلمة تاريخ ، كما أن « ريكارت » Rickert قد نظر إلى الوقائع التاريخية على الطريقة الطبيعية أي باعتبارها وقائع منفصلة . أما « زيمل » Simmel فلم يدرك أن الماضي التاريخي يحيا في الحاضر ، بل نظر

إليه نظرة طبيعية فظن أن الماضي يموت عند ما يولد الحاضر . وبالرغم من شعور « دلتاى » Dilthey بالفارق بين العلوم الطبيعية والتاريخية فإنه قد شوه نظريته عند ما ظن أن الحياة التاريخية تجربة مباشرة ، ولم ينظر إليها باعتبارها معرفة وتأملا ، وفكراً ، كما أنه لجأ إلى علم النفس وهو علم طبيعى لتفسير الوقائع التاريخية ، وبهذا يكون قد وقع فى قبضة الطبيعيين دون أن يدرى . أما « شبنجلر » Spengler فقد ظن أن التاريخ هو تعاقب وحدات ذات وحدة ذاتيةتدعى بالحضارات التى تتشابه فى دوريات حياتها مع الكائنات العضوية ، أى أن لها طفولة وشبابا وكهولة وشيخوخة واضمحلالا . وهذه الفكرة طبيعية سافرة لأنشبنجلر قد استعاض عن التاريخ « بمورفولوجية التاريخ » التى تعتمد على التحليل الخارجى ، كما أنه وضع قوانين عامة للحضارات حتى يمكن التنبؤ بالمستقبل وفقاً لمبادئ علمية . وقد سار « توينبى » على منواله ، وارتكب نفس أخطائه .

وفى رأى كولنجوود أن الإيطالى «كروتشه» Croce هو أول من استطاع تصحيح موقف الفلسفة النقدية الألمانية وخضوعها للنزعة الطبيعية . فبعد عدة محاولات استطاع أن يؤكد استقلال التـــاريخ علما قائماً بذاته ، وعبارته الشهيرة « كل التاريخ تاريخ معاصر » لا تعنى المعنى المعتاد للكلمة حيث تعنى كلمة تاريخ معاصر تاريخ الأحداث المعاصرة ، بل تعنى شيئاً آخر وهو أن المعرفة التاريخية هى المعرفة الذاتية للعقل الذى يحيـــا ، فحتى إذا قام المؤرخ بدراسة أحداث تمت فى الماضى البعيد فإن معرفته هـــذه الأحداث تاريخياً يعنى تذبذبها فى عقله . وهذا يعنى أن أدلة هذه الأحداث ينبغى أن تكون موجودة هنا والآن أمام المؤرخ ، وأن يستطيع تعقلها . فالتاريخ لا يحيا فى الكتب والوثائق ، بل هو يحيا فى حالة الاهتمام به فى الحاضر فى عقل المؤرخ عند ما يحاول أن ينتقد الوثائق ويفسرها . وبهذه الوسيلة يستطيع أن يحيا مرة ثانية فى الأفكار التى يبحثها لنفسه ويتبع ذلك أن موضوع التاريخ ليس الماضى الصرف ، بل هو الماضى الذى لدينا دليل تاريخى عنه .

لم يعد خافياً بعد هـــذا الهجوم على الوضعيين والطبيعيين والنقد الذى وجه إلى المدرســـة النقدية المثالية ، لأنها لم تتمكن فى بعض الأحيان من تأكيد استقلال التـــاريخ بالرغم من شعورها بالمشكلة ، وبالفارق بين التاريخ والطبيعـــة ، إن كولنجوود سوف يقتدى بكروتشه ، وإنه سوف يحاول تجنب الأخطاء التى تعرضت لها المدرسة النقدية الألمانية . ولن نعجب لاختياره عبارة « كل التاريخ تاريخ فكر » شعاراً لمذهبه لكى يتجنب الوقوع فى فخ الطبيعيين . وقد اهتدى كولنجوود إلى هذه الفكرة بعد أن ناقش التاريخ علما أو بعد أن بين اختلافه عن باقى العلوم . فهناك تنظيمات مختلفة للمعرفة ، فمثلا تنظيم علم الأرصاد الجوية يعتمد على جمع الملاحظات التى يستطيع العالم مشاهدتها كما حدثت ، وإن كان عالم الأرصاد لايستطيع إنتاجها إذا أراد . وتنظيم الكيمياء لا يعتمد على ملاحظة الوقائع كما حدثت ، بل يساعد هذا التنظيم على إحداث هذه الوقائع فى ظروف معينة . وهناك تنظيمات أخرى مثل التنظيمات الرياضية التى لا تعتمد على وقائع مشاهدة بل تعتمد فقط على فروض . أما التاريخ فلا يتبع أى تنظيم من هذه التنظيمات ، فالحروب والثورات لا يمكن إنتاجها بالمعامل لكى تدرس دراسة علمية دقيقة . والمؤرخ لا يشاهد الوقائع التاريخية ، كما أنه لا يعتمد على أى فروض ، بل يعتمد فقط على وقائع معطاة ، وهذه الوقائع خاضعة لمشاهدته مثل الوثائق والآثار .. وليس من حق المؤرخ أن يخترع بل يقوم بالاكتشاف فقط . والمؤرخ مطالب بتبرير ادعاءاته اعتماداً على الأدلة ، كما أن من حقه أن يستدل ، ولكنه ليس مرغماً على

الاستدلال بطريقة الاستنباط أو التحليل كما هو الحال فى العلوم الطبيعية ، لأن المؤرخ حر ، ومن حقه أن يتبع الطريق الملائم لعلمه . وفى الطبيعة نحن نتعامل مع ظواهر مشاهدة ، أما فى التاريخ فالإدراك الحسى لا يفى بالغرض ، لأننا ندرك فقط الآثار والأدلة التى تركتها الأحداث التاريخية فى الحاضر . ولذا فإن فهم هذه الأحداث يتطلب شيئاً آخر وهو ضرورة النفاذ فى أعماق هذه الأحداث لأن لها باطناً . فالمؤرخ عند ما يسأل لماذا طعن بروتس قيصر ؟ فإنه يعنى ما الذى فكر فيه بروتس ودعاه إلى طعن قيصر ؟ فالأحداث التى يدرسها التاريخ هى أفعـــال ، ولا تاريخ حيث لا توجد أفعال ، كما أن الفعل يعتمد على شخصية تاريخية حرة عاقلة . والفعل هو وحده ظاهر الحوادث وباطنها . وفى العلوم الطبيعية البحث يقودنا من حادثة إلى أخرى، والذى يهمنا فقط هو تعاقب الأحداث وتتابعها، أما فى التاريخ فيهمنا فقط أن نكتشف الفكر المتضمن فى الفعل التاريخى . هذا الفكر هو الذى يوضح لنا غاية الشخصية التاريخية ومبتغاها . ولذا فإن « كل التاريخ تاريخ فكر » . ولكن كيف نستطيع أن نكتشف فكر أى شخصية تاريخية عاشت فى الماضى ؟ .
— أولا — يجب أن تتوفر لدينا أدلة تبين أن هذه الشخصية قد فكرت فى شىء ما . — ثانياً — إذا توفر الدليل فإننا نفكر فى الفكر الذى يتضمنه لأنفسنا، ففهم كلمات « أفلاطون » مثلا يعنى التفكير فى أفكاره وما تعنيه ، ومن ثم فإن التاريخ هو إعادة تمثـــل reenactenment[1] فكر الماضى فى عقل المؤرخ ، ولكن هل تستطيع تمثل فكر شخص آخر عاش فى الماضى ؟ ويرد كولنجوود على هذه المسألة بأن القائلين بتعذر ذلك لا يفرقون بين الفكر تياراً للشعور المباشر ، دائم التقطع ، وفى هذه الحالة لا يمكن أن يعرف أبداً ، لأنه يصبح وعياً بلا شىء ، وبين الفكر شيئاً ليس متضمناً فى التيار الشعورى المباشر بمعنى ما ، ويمكن وصفه من أجل هذا بأنه خارج هذا التيار ، وأفعال الفكر ليست متصلة من ناحية الزمن بنفس الطريقة التى تتصل بها المشاعر والأحاسيس ، فلذا فإن أى فعل فكرى قد يبقى خلال فترة من الزمن ، ولن يعود مرة أخرى بعد أن يكون معلقاً ، وهذا يرجع إلى أن الفكر بالرغم من تضمنه فى تيار الوعى هو شىء قادر على إدراك وفهم تكوين هذا التيار والصور المتعاقبة التى تعرض فيه ، وهذا يعنى أن الفكر قادر على التفكير فى أفكار الماضى مثل الحاضر .

هذا بيان موجز للنظرية التى جعل كولنجوود شعارها « كل التاريخ تاريخ فكر » فاختلف بذلك عن الرأى الذى أجمع الفلاسفة على قبوله وهو اعتبار موضوع التاريخ الأحداث الإنسانية بأسرها . ولكن كولنجوود قد تعمد ألا يتبع هذا التعريف لأنه رأى استبعاد العناصر التى لا يصح أن تسمى فكراً من الأحداث الإنسانية أى ما بدا بمعنى الشعور أو التجربة المباشرة ، وهى الأشياء المتمايزة عن التأمل . هذه الأحداث قد رآها كولنجوود أموراً شخصية لا يصح اعتبارها مسائل موضوعية ، ففى ظنه أن هذه التجارب المباشرة ليس لها بناء فكرى يمكن أن يعرف ، ولا يمكن أن نثق فيما يقال عن المعرفة عن طريق إعادة الشعور التى لا توصل إلى معرفة . والمعرفة التاريخية وثيقة الاتصال

---

(١) يلاحظ صعوبة ترجمة الاصطلاح الذى استخـــدمه كولنجوود . وينبغى الإشارة إلى اختلاف المعنى الذى يقصده كولنجوود عن بعض المصطلحات الأخرى التى يستخدمها الفلاسفة والمؤرخون فى نفس هذا المعنى . مثل « إعادة الحياة » Relieve وإعادة التجربة Re-experience وإعادة الشعور re-feel والفهم التعاطفى Sympathetic understanding البعث Résurrection والاصطلاح الذى تستخدمه المدرسة البوجسودية s'installer dans = le mouvement فإن كل هذه التصورات ترى أن الفهم يعتمد على المشاركة الوجدانية . أما كولنجوود فيعنى إعادة الماضى فى صورة مشكلة ذهنية أمام عقل المؤرخ .. فلذا أفضل استخدام كلمة إعادة « تمثل » وإن اختلفت تماماً عن الكلمة الإنجليزية الأصلية .

بعقل المؤرخ نفسه ، فلذا يجب أن يكون موضوعها من نوع يستطيع أن يعود للحياة فى عقل المؤرخ ، أى يكون عقل المؤرخ مأوى ملائماً له . فالدراسة التاريخية تعتمد على التمثل فلذلك يجب أن تتمكن هذه الدراسات من الاتصال بفكر المؤرخ المباشر . ولذا فمن الضرورى أن يكون فكر المؤرخ مهيأ لهذا الاستقبال .

والفكر ليس وعياً فحسب ، بل وعياً بالذات ، ولكن لهذا الوعى صوراً مختلفة ، أولها خاص بالوعى بطبيعة الاستمرار الفكرى ، وذلك بتذكر ما سبق من تجاوب مع مقارنتها بالحاضر المباشر ، وثانيها خاص بتحليل التجربة الحاضرة ، وتمييز فعل الشعور مما تشعر به ، وثالثها تمييز النفس كائناً مفكراً بالإضافة إلى الإحساس والشعور . والتفكير لا يعنى التفكير والتذكر ، فهذه الصور تعد لا شعورية ، بل هو يعنى الفكر الشعورى ، أى عند ما يعى المفكر أنه يُفكر ، ويسمى كولنجوود هذا النوع بالتفكير التأملى ، والتفكير التاريخى دائماً تأمل ، لذلك لا يختص بغير المسائل التأملية الهادفة ، فهو يعنى لذلك بالسياسة والحروب والاقتصاد والأفعال الأخلاقية . ومعرفة هذه المسائل يؤدى فى النهاية إلى معرفة الطبيعة الإنسانية. وبذا تكون كل معرفة بالعقل تاريخية ، فلكى أعرف عقلى ، فإننى أدرس أى فعل عقلى قمت به . من هذا يتضح أن معرفة الذات لا يمكن أن تتحقق إذا اعتبر العقل مكوناً من مشاعر وإحساسات وعواطف كما ظن الطبيعيون ، بل إن هذه المعرفة متيسرة فقط ، إذا نظرنا لها معرفة بالملكات العارفة الخاصة بالفكر أو الفهم أو التعقل فحسب .

والواقع أنه لا يصح بأى حال من الأحوال أن يقتصر التاريخ الإنسانى بأسره على الأفكار . وقد تصلح هذه الطريقة عند كتابة الفلاسفة تاريخ حياتهم كما فعل كولنجوود فى ترجمة الذاتية ، لأن حياتهم هى الفكر ولكن التجربة الإنسانية الشاملة أكثر خصوبة من الفكر وحده. وقد نتساءل كذلك كيف اهتدى كولنجوود إلى رأيه الخاص بوجود ذاتية بين الفكر الذى تم فى الماضى والفكر الذى نتمثله الآن؟ إن كولنجوود لم يوضح لنا هذه المسألة ، ولا يكفى ما قاله خاصاً بأن الماضى التاريخى كامن فى أفكارنا ، أو مكبسل incapsulated على حد قوله ، ولهذا نستطيع أن نتمثله . إن الماضى التاريخى حقاً يعيش فى أعماقنا ، ولكن من المؤكد أن صورته قد تغيرت بعد تفاعله مع حاضرنا ، كما أنه ليس لدينا دليل واحد على ذاتية الفكر ، أو أن الفكر الذى نستخدمه فى المعرفة هو نفس الفكر الذى خلق الوقائع التاريخية التى نحاول معرفتها . وليس من شك فى أن ما ذكره كولنجوود عن بقاء الفكرة كما هى بالرغم من اختلاف الأنسجة التاريخية التى تحل بها ، وأنها لا تتكيف إلا تكيفاً طفيفاً لكى تتلاءم مع النسيج التاريخى الجديد وتحيا فيه يعتبر معارضاً للتاريخ. ولم تبين لنا النظرية كذلك كيف تتحقق الصلة بين الدليل والفكر ، كما أنها ظهرت فى صورة دجماتيقية ، لأنها افترضت أن التفسيرات الحقيقية للتاريخ يجب أن تكون واحدة ، هذا يعنى استبعاد الخطأ فى التفسير واختلاف وجهات النظر المختلفة . ونحن فى الحقيقة لا نأمل أن نعرف التاريخ ذاته أبداً ، وكل ما نستطيع أن نحققه هو تفسير يوضح لنا الأدلة التى تركها الماضى رموزاً دالة عليه .

يأتى بعد هذا الكلام عن منهج البحث التاريخى والتاريخ عند كولنجوود علم مستقل بذاته ، فهو يعتمد على قدرة المؤرخ الانتقائية ، ومناقشة المصادر فكما استطاعت العلوم الطبيعية أن تُدعم مكانتها على أساس راسخ وطيد بفضل اتباعها منهج « بيكون » القاضى بضرورة توجيه السؤال إلى الطبيعة ، وتعذيبها بالتجربة حتى تستطيع أن تفك عقدة لسانها وتنطق

بالإجابة على سؤال العالم الطبيعي . كذلك التاريخ ، يعتمد منهجه الصحيح على وضع المصادر فى قفص الاتهام واستجوابها وعدم قبول أى رواية على علاتها ومن ثم فإن محل اليقين فى المعرفة التاريخية لا يعتمد على إرجاع أى رواية إلى مصدر موثوق به أو إلى كتب التاريخ، التى قام بكتابتها القدامى، كما يفعل المؤرخون من أنصار « القص واللصق » Scissor and paste كذلك فإنه لا يعتمد على الذاكرة اعتماداً مطلقاً ، فالمؤرخ يستطيع أن يكشف ما أصبح منسياً تماماً إذا اعتمد على نقد روايات المصادر التى بين يديه. ويناقش كولنجوود بعد ذلك فكرة محـل اليقين فى المعرفة التاريخية ، ويرفض أن يكون هذا المحك هو ما حدث أو ما يمكن أن يحدث ، كما أنه لا يقر اعتماد هـذا المحك على تجربة المؤرخ للعالم الذى يحيا فيه . فمن المعقول أن يكون المحك فى العلوم الطبيعية هو التجربة اعتماداً على عدم تغير قوانين الطبيعة، وأن ما يبدو مخالفاً للطبيعة الآن قد كان بالمثل مخالفا لها فيما مضى . ولكن الحال يختلف فى التاريخ الذى لا نصادف فيه موقفاً واحداً لم يتغير ، ولا يقتصر عدم خضوع المؤرخ للمصادر فقط على نقدها ، بل هو يبدو واضحاً جلياً كذلك فى كتابته التاريخية عندما ينشئ روايته التاريخية ، فهو يستطيع ترتيب الاحداث كما يحلو له ، مع الحشو والاستكمال واستخلاص تفاصيل أخرى على شريطة ألا تكون هذه الاحداث خرافية بل تعتمد على دليل .

من هذا يتضح أن مهمة المؤرخ لا تعتمد على مجرد النقل ، بل إن الخيال يلعب دوراً هاماً حاسماً فى الكتابة التاريخية . وهذا الخيال فى رأى كولنجوود قبلى وضرورى لأنه يملأ ثغرات الكتابة التاريخية ويخلق الحبكة بين أجزائها ، ولا يمكن الاستغناء عنه ، فبدونه كما قال « كانط » لا تستطيع أن ندرك العالم المحيط بنا . ويؤكد كولنجوود تأكيداً قاطعاً أن الخيال عنده لا يعنى إضافة أشياء غير حقيقية أو خرافية إلى الحقيقة ، كما يحدث فى كتابة القصص ، بل هو يشبه الخيال الإدراكى الذى يطلعنا على الإدراكات الممكنة التى لم يتسن لنا إدراكها ، تماماً كالأمثلة التى ذكرها كانط فى تحليله عند ما تكلم عن أسفل المائدة أو باطن بيضة أو ظهر القمر . هـذا هو نفس الخيال الذى يلعب دوراً هاماً فى الكتابة التاريخية بتخيله الماضى وأحداثه . وبفضل هـذا التخيل نستطيع أن نراجع المصادر على ضوئها . فالخيال القبلى إذن هو أساس التفكير التاريخى الذى يقوم بتزويد هذا الخيال بمادة تفصيلية تساعد على بناء الماضى . ونحن نقوم بذلك باستخدام الحاضر يومئذ دليلا للماضى . فلكل حاضر ماض ، وكل خيال بنائى للماضى يرمى إلى إعادة بناء ماضى هذا الحاضر ، وذلك باستخدام جميع الأدلة لتحقيق هذه الغاية . فالدليل يلعب دوراً هاماً فى المعرفة التاريخية عند كولنجوود . فلا ننسى أن التاريخ مثل باقى العلوم . والمؤرخ لا يستطيع ادعاء أى معرفة إلا إذا استطاع أن يبرر ادعاءاته بأن يثبت لنفسه هذه الادعاءات أولا ثم يثبت للآخرين الراغبين فى المعرفة ذلك . ولن يتحقق هذا إلا إذا توفر الدليـل . .

ليس من شك فى أن ما ذكره كولنجوود عن المنهج لا يحتمل خلافاً فى الرأى فاتباع الثقاة لا يؤدى إلى معرفة علميـة بالتاريخ ، ولكن قد يكون من الإسراف فى التفاؤل القول بأن المؤرخ قادر على الاستغناء عن تجربته الحاضرة فى الحكم على أحداث التاريخ . وليس من شك فى أن كتابة كولنجوود للتاريخ تبين انه لم يستطع الاعتماد فقط على الخيال القبلى ، بل إنه اعتمد اعتماداً كبيراً على تجربته الشخصية ، وعلى الحقائق العامة فى فهم التاريخ . لا أظن أننى قد استطعت فى هذه الصفحات القليلة أن أقدم خلاصة وافية لجميع الأفكار التى قدمها كولنجوود للفكر العالمى فلا مراء أن تلخيص الفلسفة قد يعد من

الأمور المتعذرة التى قد يترتب عليها إساءة فهم تسئ إلى الفكر وإلى الفلسفة معاً وأنى قد أعتقد أنى سأكون قد أسأت إلى الفلسفة وإلى الفيلسوف إساءة بالغة إذا رأى القارئ الاكتفاء بقراءة مقالتى ، ولم يحاول الرجوع إلى كتاب كولنجوود « فكرة التاريخ » فهو خلاصة أفكار عميقة وتجارب متواصلة استمرت زهاء عشرين سنة فى الفلسفة والتاريخ والتنقيب عن الآثار . وربما لا تكون أكثر النتائج التى اهتدى إليها كولنجوود فى المعرفة التاريخية غير مقنعة ، ولكن لاجدال أن اهتمام الرجل بالتاريخ وثورته على النزعة الطبيعية يدل دلالة قاطعة على عمق إحساسه بالمحنة التى يتعرض لها العصر الحالى من جراء اهتمامه بالابحاث الطبيعية ، ومحاولة التضحية بالإنسان وحريته والقضاء عليه فى سبيل تدعيم المنهج العلمى والتقدم المزعوم .

